الناقدة الأستاذة مي سمعان

قراءة في رواية الدكتور "آميل منذر" : "حصاد الشوك"

"آميل منذر "علامةٌ فارقةٌ في الأدب اللّبناني والعربي، يجسّد الاصالةَ كما المعاصرة، يذودُ عن اللغة من هجمات الأدْعياء والاعداء، ويرصُد سقطاتهم ويسدد أخطاءهم .

"حصاد الشوك "روايةٌ تستحقُّ اَن تعتليَ ادراجَ كلّ مكتبة ،وان تترجَم، لانّها وليدةُ معاناة، وابنة الحياد والموضوعيّة والواقعِيّة، وقد رفَدَها حِسٌّ فنّيٌّ جمالي، ومَنّعتْها رؤيا هادفَةٌ وسامية:

لبنان هو الوطن السّرمدي لجميع ابنائِه والايمان به واجبٌ ،والسّلام ضرورة حتمية .. .ومن يزرع الريح لا بد وان يحصد العاصفة..فلنتقِ الله في الوطن...

لعلها المرّة الاولى التي اكتبُ في رواية ، ولطالما كتبتُ في الشّعر والنثر الادبيّ ، لذا اجدُني اشعرُ بمهابةِ التّجربة، وذاك انّ الرّوايةَ نموذجٌ معقّدٌ من نماذج التأليف المختلفة، وله شروطُه وقواعِده واصولهُ ، وقد يستوفي عناصِرَ النّجاح –اذا استوفى هذه المعايير –وقد لا يستوفيها .

وقراءة الرّواية تستوجِبُ متابعةً دقيقةً وعميقةً وتتبّعَ الاحداثِ في سيرورتِها الى حيث تستوي النهاياتُ ، وترْصَدُ النتائِج.

الغايةُ من الرواية

*****

أما وقد اطّلعتُ من خلال الاهداء *والتوطئة *على الغاية او القصد من وضعِ هذه الرّواية الا وهو "واجب الكتابة وضرورَةُ استنهاض النفس ...لان من لا يلتفتُ الى الماضي وينظرُ الى أخطائه لن يتبيّن الى المستقبل طريقا آمنا "...كما يقول المؤلّف.

وقد عرض قصده، بوضوح وشفافيّة ،خِشيةَ ان يضيعَ او يلتبس...ولن يضيع طبعا ، فمن يقرأ الروايَة سيكتشفُ هذه الاهداف النّبيلةَ التي حدت بالكاتب ان يتجشمَ هذه المشقّةَ بكامل حضوره النفسي والعقلي والخيالي ، وها هو يحدّد الخطّة التي انتهجها لتحقيقِ بغيتِه ، يقول :

" لذلك غمستُ قلمِي بأوجاعِ الصّغار الذين قُتلوا في حربِ الكبار، وارسلتُ خيالي ينفضُ بأجنحتِه غبارَ الايّام، عن صدْر الحربِ المدمّرة ...وجلستُ اكتب لعلنا نعتبرُ ...ونتعلّم. "

ويحرُص المؤلّف على التوضيح بانّ الكتابَ ليس كتابَ تاريخ بل هو رواية ادبية هدفُها الاسمى تسليطُ الضّوء على اخطاء الكبار ..ومعاناةِ الانسان في هذا الوطن المعذّب ابّان الاحداثِ الدّاميةالتي وقعت في لبنان ما بين عام ١٩٧٥ و١٩٩٤ تاريخِ العودةِ الى القرى المهجّرة.

الحكم والامثال الشعبية

وقبل انْ الجَ الى انطباعاتي الخاصّة، او قراءتي، اجِدُ من الضّرورة الوقوفُ عند العناوين وقد اتبَعَها بأقوال لمشاهيرَ في عالم الفكرِ والادبِ والسّياسة

- قرية من بلادي

"حتى الورقة تصبح اخف اذا حملها اثنان "(مثل كوري).

- العاصفة

إذا اردت ان تهزم اعداءك ،اجعلهم أصدقاءك (ابرهيم لنكولن)

- في فريق واحد وخندق وأحد

الجماهير تتبع من يبهرها وتدير ظهورها لمن ينيرها (تورنييه)

- الناس في الحقيقة لا يولدون مواطنين بل يصبحون كذلك . (سبينوزا)
- اعجب ممن يخافون الموت ولا يخافون الحياة (بول فاليري)
- من ادار ظهره للشمس لا يرى غير ظله مثل صيني ....وهكذا ...

ان من يضيفُ هذه الاقوال، الى مانجِدُه من امثال شعبيّة لبنانية وعربيّة شائعة داخل الفصول ،يكتشفُ ذائقَة الكاتب التي تختمِرُ بالثّقافة وتوظّفٌ الحكمة حيثُ يناسب ، فالحِكَم ، سواء من مفكّرين ام امثال شعبية ، تختصر وتوجز القصد، وهي عُصارةُ الاختبار الانساني على مرّ العصور..ولو شئتُ احصاءها ، لبلغت العشرات، في هذه الرّواية.

الطبيعة والنزعة الرومنسية

ينطلقُ المؤلّف من تصوير رمزي ودلالي للطبيعة التي تلبدت سماؤها بعد ان كانت صافية، واشتد عصْفُ رياحها بعد ان كانت النسائم منعشة...وهادئة.

واشار الى ان "غيومَ الصّيف البيض ستتلبّدُ داكنة سوداء وتمطر الارض حِمَما"..

ولعله يشير بذلك الى البدايات المتمَثّلة بالاضرابات والتظاهرات الغاضبة التي بدات تندفع وستدفع شيئا فشيئا الى الانفجار الكبير الذي حدث يوم الثالث عشر من نيسان سنة ١٩٧٥ والذي كان انطلاقةَ لحرب مأساوية عاشها لبنان واللبنانيون وما تزالُ مفاعيلها حتى يومِنا الحاضر.

على المستوى السّردي والرّوائي

لقد تتبعت سير الاحداث في "حصاد الشوك "من خلال ما كان يجري من تهيئة وتجييش اولا، ثم استقطابِ المؤيّدين، ومن ثم ، وقد اصبحوا محاربين، وما رافق كلُّ ذلك من تعصّب واستزلامٍ وكراهية وتقرقة وانقسامِ الاخوّة داخل البيت الواحد والتعَلّق بشعاراتِ الاحزاب التي نمت واستطاعت ان تنتزعَ الشبّانَ من أُسَرهم للالتحاق بالامر العسكري .

كل ذلك ، عبر سرد الاحداث والحوارات بين الناس، وما رافقها من مشاعرِ غضب واسى وحزن او امل.

الحوار

هو من صُلب العمل الروائي ، المتكيء على الواقع ،ولا بدّ منه لاحياء الاحداث والإحاطَة بجزئيّاتها كافةً ، وهذا ما استند اليه الكاتب ،فجعله حيّا واقعيا و مقطوفا من افواه النّاس على عواهنِه وصدقه وطبعيّته ، والامثلةُ التي تحتشِد قي الرواية ، هي خيرُ دليلٍ على ذلك.

الجانب السوسيولوجي الاجتماعي

إن من يقرا "حصاد الشوك "تتشكّل قي ذهنه حالة مكتملة ومتكاملة لما كان عليه الناس آنذاك سواء في القرى ام في المدن ، من حيثُ الفَقر او الغنى او الاكتفاءُ والكفاف.

وقد بدت العلاقات الاجتماعيّة والإنسانيّة جيّدة جدا الى حين بدات فصول الميليشيات وما رافقها من توتّر وتأليب للنفوس ، ورفع منسوب الكراهية والتخوين

والتعصب ، والامثلة في الرواية تشهد على ذلك، ولا ننسى دور العدو الصهيوني وما لعبَه من أدوار في اضرام المواجهة، وكان اللبنانيون وقودُها..

الجانب الاقتصادي

وقد تجلّى في وجهين :

الوجه الاول المعتمد على الزّراعة والتجذّر في الأرض والاعتناء بالبساتين وما كانت تغلّه المواسم من خيرات وما كانت تخلّفه من سعادة وطمأنينة في النفوس، وكيف كان السخاء قاعدة في حياة القروي ، وفي تفاعله مع الآخرين.

اما الوجهُ الثّاني فقد ظهر عندما بدأ الشبّان يهجرون الأرياف الى المدن طلبا للعلم او يسافرون.

اما الطّامَة الكبرى فهي عندما التحق هؤلاء بالأحزاب وحملوا السلاح وتنابذوا وتذابحوا ...فاهملوا الأرض فأقفرت، ومحلت المواسم ، وجفّت الدّنان ،ثم كان التهجير الذي اقتلع الناسَ من بيوتهم ورمى بهم في أزقة الضّياع وعلى ارصفة التسَول وفقدان الكرامة .

الجانب التاريخي

"حصاد الشوك "توكّأ على الاحداث الكبرى في الحرب اللبنانية ،وقد وثّق عناوينها وانعكاساتها على اهل الجبل)اهل الشوف (،مستعينا بخمس مراجع ، ارّخت لتلك الحقبة ، فثبّت العناوين في متن النصوص ، امّا التفاصيل ففي الهوامش حفاظا على الموضوعية والدّقة والواقعية..فالرواية من قلب الواقع وابطالها عاصروا الحرب او صنعوها ،وعانوا من جرائها الكثير الكثير.

الجانب الانساني

ولعله اكثرُ الجوانب تضررا وتشوّها وقد اصابت منه الحرب مقتلا فبات الاخ يعادي اخاه والصديقُ ينبذ صديقَه والاولاد يخرجون عن طاعة اهلهم ويتصَرّفون برعونة وهم منساقون وراء زعيم يبثهم سمومَه الطائفية وشعاراتِه الحزبية .وقد تسببت الحرب التي نشبت بين الجيش والميليشيات بفظائعَ وسقط أبرياء، ولم تراعَ حرمة مساجين الحرب الذين استسلموا ، بل أُبيدوا على ايدي اخوتِهم في الدم او العقيدة او المواطنية .

والنماذج كثيرة في الرواية ؛ فها هو محاربٌ مسلّح يقف عند باب المستشفى ليدقق باسماء الجرحى المنقولين اليه ليسمع او يردع ويمنع...وها احدهم يمنع

احد الجرحى النازفين من الدخول لتلقي العلاج لانه ليس من الحزب الذي ينتمي اليه ويتركه يلفظ انفاسه خارجا...ثم يدرك انه اخوه...فيندم و..لات ساعة مندم!..

المرأة ابان الحرب

لقد نالت نصيبها من الويلات ، إن على صعيد الخوف والقلق على ابنائها أم عند خسارتها لهم وتفجّعها عليهم ..فهي ام ثكلى او ارملة فقدت زوجها وعضد البيت وها هي تتشرد بحثا عن ملجأ او عمل ، ولكم تعرضت لمواقف ذل على ابواب دكاكين الاغاثة حيث اراقت كبرياءها ولم تنل مساعدة ....البتة.

الجانب العاطفي

لم تهمل الرواية الجوانب العاطفية وما يخالطها من مشاعر ومواقف ولقاءات ونظرات ووعود وبعضها انتهى الى زواج وقد اثمرت ولكن رحى الحرب مزّقتها وقضت على براعم الامل

اما من حيثُ لغة السرد الروائي

ان الاسلوب الادبي الشيّق الذي خيّم على الرّواية جعلها في ذروة الجمالية الفنيّة والقدرة التعبيرية والايحائية الرّمزية، ، وذاك الوقع والجرس، وتلك الطلاوة والسلاسة ، كلها انصهرت، مع الدفق الشعوري لتضاعف وقعه في نفس القاريء ،وتجسّد حالة ابداعية غنيةً ومكتنزة.

ومن يقرأ "حصاد الشوك "، ستطالعُه شطحاتٌ حافلةٌ بالوصف المادّي الدّقيق، وسرعانَ ما ينقلُك ذلك الى مناخاتٍ شعورية متناهية متنامية ، تتاخم الشِّعر في فيضه وانسكابه ،عبر تجلّيات رؤيويّة تسحَرُ الالباب.

واذا كان النّقّاد ، فيما مضى ، قد عابوا على "جبران خليل جبران "استرساله في الخيال، وانزياحَه خلال "الاجنحة المتكسرة" "والأرواح المتمردة "الى الادب الوجداني ،واطلاق العنان لمخيلتِه، تجوبُ اقاصي التأمّلات، وتتنسّم اسمى المشاعر ، مما يعطّل، بحسب رايهم ، او يعرقل، مسار الرواية، ويجهض تناميها التصاعدي الطبيعي ....فاني ارى انّهم اصابوا جزءا من الحقيقة، ولكنّهم غفلوا عن الغاية التي من أجلها سخّر جبران قلمَه وروايته للتعبير عن افكاره التي تجاوزت المألوف والسائد وتخطته كثيرا لتحلق بعيدا .

اما، وقد اشرتُ الى شطحات المؤلّف الوصفية، فإني اراها ظلت في اطار الاعتدال، ولم تسلّم الرواية الى العبث التخيّلي او الشّطط العاطفي ، وشكّلت محطاتٍ ادبيّةً رائعةَ البوح، وبالغةَ الحيويّة، وتصلح لان تدرّس في المعاهد والجامعات نظرا للجمالية الفائقة التي تحشُدُها وتنقل القاريء الى سماواتها المَهيبة.

وقد ظلت الاحداثُ تتنامى، في سياقها التصاعدي ، وظل العقلُ ذاكَ المايسترو الواعي والمسيطر ، وظلت الروافدُ تصُبُّ حيثُ يجب لتشكلَ نهرا واحدا وتؤدي الوظيفةَ المرجُوّة والمبتغاةَ عينَها ، دون سواها .

وما يستحِق التنويه، هو هذه اللغةُ الرصينةُ المكينةُ الرشيقة الانيقة والمحكَمة السّبك، والتي تحتضنُ من حين لآخر ،امثالا شعبية ، تنزل كما الياقوتُ في عقدِ اللغة الفريد ، فترصّعَ الحواراتِ، ولغَةَ التخاطب في الرواية، ايّما ترصيع .!

فن الصّورة الكلامية

لقد برع المؤلّف في نقل المشاهِد البصريةٍ كلّ البراعة ، وجسّدها افضل تجسيد ،ووظّف لها كنزَه اللغوي وقاموسا دقيقا يمتَلكه ؛ فنحنُ امامَ مشاهدَ متحَرّكةٍ ولا حاجةَ لمخرج يستجلبُ اضافاتٍ من هنا او هناك ..

وصفُ سلوكِ الافراد ،ملامحِ وجوههم ، وملابسهِم .وصَفَ الطبيعة قي كل فصولها و السماء وما فيها وما يعتريها....وصفَ المشاعرَ وما يلوّنها من غضب او عتب، او حبّ وما يطلقه من أجنحة ، وصفَ الليل وما يحمله من اخيلة ، وصف السّماء الملبّدة والمكفهرّة ،او الصافية والجميلة...

وهنا تبرز شاعرية المؤلف المبحِر في العربية والمجيد للغوص، والمتقن فنون البديع والبيان، والمعلي مقام الفصاحة ايما اعلاء!.

خلاصة

لعلّ الهدفَ الأسْمى الذي كرّس له الكاتبُ روايتَه "حصاد الشوك "هو لبنان الذي سَقط ابناؤه في التجربة ولمّا يحسِنوا النهوضَ بعد ،وقد سعى مخلِصا ، من ألف الرواية حتى يائها ، أن يسَوِّق المواطَنة الحَقّة، وان يرفعَ رايَة المواطِن المؤمن بلبنانَ وارضِه وشعبه والمحافِظِ على حدودِه وعلى كرامَة أبنائِه، والدّاعي الى الوحدة والانصهار في محبة لبنان ، والالتزام بقضاياه العادلة ، وانصاف الضّعفاء والمحرومين ..

الرّواية ذاتُ طابع مأساوي، وهذا ما اوحى به العنوان" :حصاد الشوك "والصورة الفنية التي تصدّرت الغلاف ؛ تلكَ اليدُ القابضَة على الشّوك الأسود بعزم وقوّة ...

الحرب مزّقت لبنان وخلّفت وراءَها حصادا خائبا وشوكا مؤذِيا جرّح الايدي والقلوبَ واضنى اللبنانيين الذبن ورثوا وطنا جميلا تعِب عليه اجدادُنا كثيرا..وضحّوا من أجلِه، وكابدوا من طغيان المحتلّين الغزاة....وكانوا في كلّ مرّة ينهضون...من الرّماد .

ولبنان اليوم، يخسرُ ابناءَه ومستقبله وادمغَته، وباتت الغربان تنعب في سمائه ، والامهات يقضين قبل انْ يكحّلن العيونَ بعودة ابنائهنَّ.

"حصاد الشوك "رواية استبدّت بي وارّقتني لأنها احيت فيّ رميمَ ذكرياتٍ عشتُها كوني ابنةَ هذه الارض وعاصرتُ تلكَ الاحداثَ الاليمة...

ولا انكرُ انّي استمتعتُ جدا بالرّواية ،كعمَل ادبيّ وفنّي في غاية الجودةِ والاتقان ، وتلك الحبكةُ، الرّائعةُ السّبك، والدّيباجة الرخيّة الفاتنة، والسّخرية المحبّبة التي اطلت بخفر او بجسارة ،لتلطفَ المشهَد وتشهدَ للحياة ونبضِ الفرح ،ونفحَةٌ غنائيّة وجدانية ، اسرت قلبي واثرت عقلي، وبعثت فيّ شهيّة الاستزادة من ادب دكتور يجلّ اللّغةَ ويقدّس طقوسَها ، يتجلبَبُ بها ، يحميها ويدافع عنها.